# بيئته

بين حَرّانَ ودِمشق تقسّمت حياة ابن تيميّة، خلا سنين قلائل قضاها بمصر بعد أن جاوز الخامسة والأربعين، ثمّ عاد إلى دمشق..

ففي دمشق نشأته، وترعرعُه، ونُبوغُه، وشُهرتُه، ثمّ وفاتُه..

وحرّان مسقط رأسه، ومناخ طفولته، وموطن آبائه القديم..

ففيها ولد وأمضى سِنيّه الستّ الأُولى، حيث يكون الطفل مستعدّاً للتأثّر بمحيطه تأثّراً تثبت معالمه في مقوّمات شخصيّته. من هنا عُنِيَت التربية الحديثة بهذه المرحلة من العمر وأوصت بتهيئة الجوّ الأمثل للطفل خلالها، فالتأثير المُعنى به هنا إنّما هو تأثير البيئة، وأمّا الوراثة فليست مرتبطة بسنٍّ معيّنة.

ولقد ركّز الإسلام أيضاً عنايته بهذه المرحلة من العمر، كما عرف ذلك العربُ قبل الإسلام حيث كانوا يُودعون المولود الجديد مرضعات البادية، ثمّ لا يُعيدونه حتّى يبلغ السادسة من العمر أو قريباً منها، إدراكاً منهم بأنّه سيعود حاملاً مُقوّمات شخصيّته المستقبليّة من تلك البيئة.

لذا رأينا قبل الدخول في دراسة معالم المفكّر المجتهد أن نقرأ أهمّ ملامح موطنه الأوّل.

حَرّان[١]:

أوّل أرض وضع فيها حائط بعد الطوفان، غير بابل.

بلدةٌ في أرض الجزيرة المستوية بين دجلة والفرات، هي موطن المضريّين، بناها هاران أخو إبراهيم الخليل ﷺ، فسُمّيت باسمه، ثمّ عُرّبت فقيل: حرّان.

وإليها كانت هجرة إبراهيم الخليل بأهله أوّلاً، نزل على عين ماءٍ فيها، فأقام هناك ساكنوها من بعد مشهداً سمّي مشهد إبراهيم الخليل.

وفي ما حكاه القرآن الكريم من قول إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[٢] قيل: هاجر إلى حرّان.

وفي قول الله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[٣] قيل: تلك الأرض كانت حرّان. هذا ما ذكره ياقوت وابن الفقيه[٤]، وهو عند أصحاب التفسير نادرٌ جدّاً.

وحرّان موطن الصابئة! فيها سَدَنَتُهُم السبعة عشر، وبها تَلٌّ عليه مُصلّاهم الكبير، يُعظّمونه وينسبونه إلى إبراهيم الخليل ﷺ.

ويزعُم الصابئون أنّ ماني الثنويّ مِن أهل حرّان، قال بالاثنين[٥] فضارع

---

(١) مروج الذهب، الكامل في التاريخ، معجم البلدان ٢: ٢٣٥، مختصر كتاب البلدان: ١٢٦، أحسن التقاسيم: ١٢١، ١٢٦، سير أعلام النبلاء ٢: ٣٥٤، رحلة ابن جبير: ٢٢٠، الروض المعطار: ١٩١، صبح الأعشى ٤: ٣١٩، بلدان الخلافة الشرقية: ١٣٤.

(٢) الصافّات ٣٧: ٩٩.

(٣) الأنبياء ٢١: ٧١.

(٤) معجم البلدان ٢: ٢٣٥، مختصر كتاب البلدان: ١٢٦.

(٥) أي أصلين للمخلوقات هما: النور والظلمة، أو الخير والشر.

قول المجوس، ووضع أناجيلَ وتَسمّىٰ مسيحاً فضارع قول النصارىٰ، وأفسد الشريعة، وقتله سابور أحد ملوك الفرس على الزندقة.

ويزعُمون أيضاً أنّ ديصان الزنديق هو من أهل تلك الديار، وكان ولد زنا، وُجِد منبوذاً على نهر ديصان، فسمّي به.

ويجوز أن يكون أسقف حرّان ثيودور أبو قرّة هو الجاثليق المجهول الذي كان يناظر الإمام الرضا ﷺ في عدّة مجالس ذكرها ابن بابويه في كتابه (عيون أخبار الرضا)[1].

ودخلت حرّان ظلّ الإسلام أيّام عمر بن الخطّاب ﷺ على يد عِياض بن غنم، الصحابي القائد الذي صارت إليه ولاية الشأم كلّها، استخلفه عليها أبو عبيدة ابن الجرّاح عند احتضاره، وهما قريبان، وأقرّه عليها عمر حتّى توفّي سنة ٢٠هـ.

افتتحها مع جارتها الرُّها صُلحاً، نزل عليها قبل الرُّها، فخرج إليه مقدّموها فقالوا له: ليس بنا امتناعٌ عليكم، ولكنّا نسألكم أن تمضوا إلى الرُّها، فمها دخل فيه أهل الرُّها فعلينا مثله.

وأهل الرُّها كلّهم نصارى، ولهم ثلاثمئة وستّون دَيراً، وكنيستهم الكبرى الملبّسة بالفسيفساء معدودة في عجائب الدنيا، وفيها وُلِدَ هِرَقْلُ إمبراطور الروم الذي هزمه المسلمون في فتوح الشأم.

وفتحت المدينتان أبوابهما للمسلمين، وبقيتا حليفتين يجري على الواحدة ما يجري على الأُخرىٰ، لاسيّما أيّام السلاجقة ثمّ أيّام التتار، أمّا أيّام الغزو الصليبي فسلمت حرّان، في حين كانت الرُّها محطّتهم الأُولى في بلاد الشأم.

---

(١) دوايت م. روندلسن: عقيدة الشيعة: ١٧٥.

وقبل هذا التاريخ كان أهل الرُّها يُقَدِّسُون منديلاً يزعُمون أنّه منديل المسيح عليه السلام، من أجل ذلك بقيت المدينة عرضةً لغزو الرومان حتّى أعطاهم المسلمون ذلك المنديل في سنة ٣٣٢هـ (٩٤٤م).

وحين كانت الدولة للسلاجقة في العراق وأجزاء من الشأم كانت حرّان في ملكهم، تبادلها أُمراؤهم وربّما تنازعوا عليها، حتّى دخلها عماد الدين زنكي سنة ٥٤٠هـ لينقذها من غزو صليبيّ كان على الأبواب.

ثمّ تعاقب عليها الأُمراء الأيّوبيّون (٥٦٧ ـ ٦٥٨هـ): أعطاها صلاح الدين لولده الأفضل عليّ، وبعد وفاة صلاح الدين واستيلاء أخيه العادل انتزعها من الأفضل وأعطاها لابنه الأشرف، ثمّ صارت للناصر أخي الأشرف، ثمّ انتزعها منه أخوه الكامل لنفسه، وفي مدّة ولاية الأشرف غزاها كَيْقُباذ السلجوقي ملك بلاد الروم سنة ٦٣١هـ وبقيت تحت الاحتلال حتّى استعادها الكامل سنة ٦٣٣هـ.

وجاء عهد الاجتياح المغولي وسقطت دار السلام (بغداد) في سنة ٦٥٦هـ، وتبعتها نواحي العراق لا سيّما الموصل. وحرّان بوّابة الشأم من جانب الموصل، فكانت على الدوام عرضة لاجتياح التتار الّذين كانوا يدخلونها فيقتلون من صادفهم من أهلها ويُخرّبون ما وقعت عليه أيديهم، وينهبون ما عطفت عليه أعينهم، ثمّ يتركونها قاصدين المدن الداخلية الكبرى كحلب وحماه وحمص ودمشق.

وفي كلّ مرّة غزا المغول مدن الشأم كانت حرّان ضحيّتهم الأُولى، فذاقت أشدّ البلاء في سنين عجاف شهدت إلى جانب استفحال التتار تدهور الدولة الأيّوبيّة وانقراضها، ثمّ نشوء دولة المماليك في مصر (٦٤٨هـ) ثمّ في الشأم (٦٥٨هـ) لتعود حرّان حُرّةً بيد المماليك مرّة، ومغلوبةً بيد التتار أُخرى، ممّا اضطرّ غالب

سكّانها إلى هجرها والفرار إلى مدن أكثر أماناً، ومن بين الفارّين كان شيخ حرّان عبدالحليم بن تيميّة، فرّ بعياله في سنة ٦٦٧هـ قاصداً دمشق.

هذا هو حال حرّان، مدينةٌ لم تعرف طعم الأمان إلّا سنين متقطّعة، تكون بعدها عرضةً لاجتياحٍ جديد!.

وكانت هذه المدينة إحدى محطّات ابن جُبير الرحّالة سنة ٥٨٠هـ، فوصف أجواءها وطبيعتها بعبارته المسجوعة، فقال: بلدٌ لا حُسنَ لديه، ولا ظلَّ يتوسّطُ بَرْدَيْه [١]، فلا يألفُ البردَ ماؤُه، ولا تزالُ تتّقِدُ بِلَفْحِ الهَجير ساحاتُهُ وأرجاؤُه، ولا تجدُ فيها مَقيلاً، ولا تتنفّسُ فيها إلّا نَفَساً ثقيلاً، قد نُبِذ بالعراء، ووُضِع في وسط الصحراء، فَعُدِمَ رونقَ الحضارة، وتعرّت أعطافه من ملابس النضارة!.

ذاك مناخها، أمّا عقائد أهلها بعد الإسلام؛ فقد غلب عليهم الهوى الأُموي، فكانوا أشدّ الناس تعصّباً لبني أُميّة، وكانوا يرون أنّ صلاة الجمعة لا تتمّ إلّا بلعن الإمام عليّ عليه السلام! وحين جاءهم الأمر من عمر بن عبدالعزيز بإزالة لعن أمير المؤمنين عن المنابر امتنعوا وضجّوا، وقالوا: لا صلاة إلّا بلعن أبي تراب!.

ثمّ كانت حرّان مأوى مروان الحمار آخر الملوك الأُمويّين حين فرّ من العباسيّين، وله فيها قصر كبير أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم [٢].

وأمّا مذاهب أهلها؛ فمنذ أن تقسّم الناس على المذاهب كانت حرّان موطن الحنابلة لا ينازعهم فيها أحد، وتخرّج منها علماء كثيرون فقهاء ومحدّثون لا تجد بينهم غير الحنبليّ، إلّا أن يكون مولده ونشأته بعيداً عنها. وحين وصف ابن عساكر أحد أعلامها ـ أبا عَروبة الحرّاني المتوفّى سنة ٣١٨هـ بأنّه غالٍ في التشيّع شديد الميل

---

(١) أراد برد الصباح وبرد المساء.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ١٢٢.

على بني أُميّة ! استنكر عليه الذهبي ذلك ، فقال : أبو عَروبة من أين يجيئُهُ الغلوّ وهو صاحب حديث وحرّاني؟! بل لعلّه ينال من المروانية ، فيُعذَر[1] .

(١) سير أعلام النبلاء ١٤: ٥١١.